مقدمة

فى منتصف شهر مارس عام ١٩٤٦ أصدرت « دار نشر الثقافة » كتابى الأول عن جورج برنارد شو ووزعته فى مصر وسائر بلاد الشرق العربى ، ولم يكن ليدور بخلدى آنذاك أن كتابا عن « جورج برنارد شو » يلاقى مثل ما لاقاه هذا الكتاب من رواج ونجاح لاشك أنهما أثبتا لى شغف القراء بهذا الرجل ، وسمو تقديرهم لمواهبه وعبقريته الفذة . الشىء الذى أجبرنى على متابعة دراسته دراسة دقيقة خلال العامين الماضيين ، حتى أننى تلفت حولى ، أقلب النظر فيما أمامى من كتب ، فاذا بها جميعاً تتناول موضوعا واحداً ، وتحاول جاهدة أن تكشف القناع عن شخصية رجل واحد بلغ مراتب النضج الذهنى ، فغدا حديثه ، وغدت أفكاره وآراؤه عصارة لتجاربه ، ومنارة يهتدى بهديها شعوب العالم أجمع . .

ولم أفق إلا على حقيقة واحدة هى إننى ضيعت عامين آخرين مع هذه الشخصية ، أحاول سبر غورها ، والوقوف على طلاسمها ومعمياتها . .

ولم تكن هذه الشخصية غير شخصية برنارد شو ! . .

وبرنارد شو موضوع قائم بذاته ، له أهمية كبرى فى هذا العصر ، فلا عجب أن عدت إلى الكتابة عنه مرة ثانية ، أتم بحثا بدأته منذ عامين ، ومن يدرى ؟ فقد يمتد الأجل بهذا الرجل بضعة سنين أخر يملؤ الدنيا خلالها كتابة باسلوبه الساخر الفريد ، فنعود نحن إلى الكتابة عنه مرة ثالثة ، إذا امتد بنا الأجل كذلك .

ودراسة برنارد شو تحتاج فيما تحتاج اليـــه الصبر طويل ، والمرانة على مجابهة المصاعب والمشاكل . فهو رجل معقد إلى أبعد درجات التعقيد ، عسير فهمه .

ولست أذيع سراً ، إذا قلت إنه أقض مضجعى ليالى كثيرة ، وأجبرنى على قدح زناد فكرى زهاء ستة أشهر طوال . حاولت أن أفسر فيها كتابه الجديد « قاموس السياسة » هذا السفر الجليل الذى يعد بحق أحسن ما كتب برنارد شو فى عالم الدبلوماسية . لأنه دستور شامل لأسباب المدنية ، لأسباب التربية والتعليم ،

والاقتصاد ، ونشوء الدولة ، وارتقائها من طور إلى طور حتى تصل آخر درجة فى سلم الكمال المنشود .

ويكفى أن صاحبه كتبه وهو فى سن الاكتمال السياسى ، والنضج الذهنى ، ثم قال عنه ، وهو صاحب النظرة البعيدة ، بسخريته المعهودة « ومع كل فكتابى هذا مرشد الأطفال فى السياسة ؟ ! ! . . »

زد على ذلك ما أثاره ويثيره برنارد شو من موضوعات ومشاكل تعتبر من أمهات المسائل التى تحظى بتفكير أقطاب السياسة فى كل صقع ومصر ، وعلى الأخص فى هذه الفترة الدقيقة التى تواجهها الأمم والشعوب من قلق دائم ، واضطراب عصبى شديد . .

أقول إن برنارد شو فى هذا الكتاب ، كما فى كتابه الآخر « جرائم السجن » ينهال بسخريته المعهودة على أساليب الحكم الراهنة ، ويقوضها من أساسها ، كما ينهال بسوطه الملتهب على ظهور هؤلاء الذين سببوا للعالم متاعب ، ما كان يجب أن تكون لو أنهم تبصروا فيما أقدموا عليه من أعمال ، وعرفوا سوء المصير الذى صار اليه العالم المتمدين الحديث . .

فهو فى هذه المرة يهدم كما اعتاد أن يهدم نظريات غيره ، منذ أرسل صيحاته الداوية فى فجر هذا القرن الذى نعيش فيه ، ثم يخرج على عادته ، فيقدم مواد البناء وخاماته ، ويحلل كل مادة تحليل الكيميائى البارع المتمكن فى عمله . ليؤكد لأمثال هؤلاء الساسة الكبار ، أنهم إنما ركبوا شياطين أهوائهم ، وضربوا صفحاً بحقوق ذلك الفرد الذى يعيش فى مجتمعهم . والذى يفتقر عادة إلى معونتهم الدائمة ، وينزع بطبعه إلى التمتع بمطايب الحياة ومغرياتها ، لو أنهم مهدوا له ذلك بتصرفهم الحكيم .

ولكن قد يكون هذا محض خرافة . فما تنزهت أمة عن النقائص ، وما تبرأت من الجشع المطبق الذى يجثم على صدرها . إنها والحالة هذه إنما تبحث عن صالح الفرد أيضاً ، وتحاول جاهدة أن توسع من ممتلكاتها لتتيح له فرصة التمتع بمطايب الحياة فى مستعمرة من مستعمراتها النائية ، فهى تفيده من نواح متعددة ، وتمهد له طريق العيش الهين الرغيد . .

وهنا يبدأ الصراع من جديد . . . ويتحرك برنارد شو فى مقعده ثائر النفس ساخطا متبرما ، ولا يلبث أن تتحرك يده الفولاذية إلى سوطه يعبث به فى الهواء متوعدا مهددا ، ثم ينهال على هؤلاء الحكام وأفكارهم ، فيسقطهم من عليائهم ، ويسفه أفكارهم الاستعمارية البغيضة التى لا تسعى إلا إلى خراب البيوت ، وتحبذ السبى والقرصنة والسرقة من ديار الغرباء ، لتتمتع هى وشرذمتهم من المواطنين بمطايب الحياة اغتصابا .

إنها والحالة هذه إنما تهدم المبادىء العليا ، وتلقى بها إلى أعماق المحيط . . . فيا لضيعة الأخلاق على يد هؤلاء الحكام المزيفين الذين تنقاد وراءهم الشعوب كالخراف لا فرق بينها وبين قطعان الماشية ، وهى تنقاد إلى حتفها بظلفها . . .

* * *

نجح برنارد شو فى رسالته نجاحا منقطع النظير ، ولم يأته هذا النجاح جزافا ، أو من باب المصادفات ، بل أتاه بعد أن تحمل فى سبيله الآلام والتشرد والاضطهاد ، ولكنه سار فى طريقه لا ينظر وراءه ، بل تابع نظرته إلى الأمام . .

إن الماضى ملىء بالأخطاء ، والحاضر رهن بأخطاء الماضى ، والمستقبل بيد الله عالم مجهول لا يعرف مداه .

ولكن عبرة الماضى ، وقلق الحاضر ، يفتقران إلى حكمة سديدة لن تأتيهما إلا فى مستقبل الأيام .

إذن . . ماذا يعوز شعوب العالم الآن غير الوقوف على تلك الحكمة البالغة التى تنير أمامهم الطريق ، وتحذرهم من الوقوع فى أخطاء الماضى ، وترفع عنهم قلق الحاضر ؟ إنها المنارة التى يبحثون عنها فى خضم الحياة ، تبدد لهم سواد الليل وترد عنهم أبالسة الظلام . .

هى حكمة طال بحثهم عنها فلم يجدوها . . .

قلبوا صفحات الكتب التي ملأت الارض منذ أن بدأت الثقافة تعمل عملها فى ذهن الإنسان .

طالعوا للفلاسفة والحكماء الأولين ، ودرسوا نظرياتهم دراسة وافية ، فما خرجوا من بحثهم بشيء يذكر .

إنهم يطالعون أحلاما منمقة بعيدة التحقيق . يعيشون فى جوها العبق منتشين ساعة أو ساعات . فى مدينة فاضلة ، لا يعرف الشر طريقه اليها ، فما يكادوا يلقون بأسفار الحياة جانبا ، حتى تهزأ بهم الحقيقة السافرة والواقع المرير . ويعرفون أن الشر مزروع فى كل مكان حتى فى أمكنة الصالحين والمؤمنين .

كل هذا عمل له برناردشو كل حساب . بل لعله كان أبعد من ملايين الناس نظرا وأخصبهم فكرا ، وأقواهم تحملا للشدائد والخطوب ووعورة الطريق . فداس الأشواك بقدم داميه ، وتخطى الأسوار بمهارة فائقة ، حتى وصل إلى ذلك الشاطىء المجهول . ينظر منه الى صفحة المرآة السحرية ، التى لا يعرف طريقها إنسان ، فتعكس له صور الحقيقة شفافة عارية سافرة لا تفتقر إلى دليل .

وأطال برناردشو النظر ، فرأى شرور العالم مجسمة مرتبة فى هيئة دور وطباق فوقف على مواطن الشر ، وتأصل الضعف ، وتغلغل الفساد فى المجتمع الانسانى الحديث وأغمض عينيه عسى أن تتغير الصور أو تتبدل بها غيرها ، ولكن المرآة كانت صادقة فيما أوحت به ، أو فيما كشفت له من أسرار . فهز رأسه متحسرا واعترته نوبة شديدة ، من غضب دفين ، فهب واقفا ، والدماء تسيل من قدميه ، وتناول حجرا أصم ، والقى به بكل قوته إلى تلك المرآة اللعينة فتطاير رذاذ الماء إلى وجهه حتى غمره ، فأفاق تدريجيا على الحقيقة المرة . . ثم عاد .

عاد ليقول لقومه : أيها الشعب الانجليزى الغر المفتون بنفسه ! . . إنكم يا قوم تتخبطون خبط عشواء . وتهيمون فى آفاق الضلال والبهتان ، وتغرقون تدريجيا فى محيط من الشهوات الجشعة الفانية ، فاين مبادئكم ياقوم ؟ أين مثلكم العليا ؟ أين خلقكم القويم ؟ وأين وأين . . إنها جميعا قد اندثرت ، وطمست معالمها منذ أن بدأتم تسعون إلى إثارة الفتنة فى النفوس ، وتؤلبون العناصر بعضها على بعض ، وتمثلون مسرحية الشيطان ، بل إنكم والحق يقال ، برعتم وفقتم الشيطان دسا وتفريقا فاشعلتم النار فى كل مكان ، وقوضتم صروح الاخلاق . فلم يعد لها فى الوجود أثر يذكر .

أرأيتم إلى أى منقلب تنقلبون وإلى أى طريق انتم مسوقون ؟ طريق الفساد لا أكثر ولا أقل . طريق خير لكم ألا تطرقوه باقدامكم بعد اليوم ، فهو طريق ممقوت مرذول . مشوه المعالم ، بعيد كل البعد عن النزاهة والشرف ـ رأس مال الدولة الصالحة ـ بل إن النزاهة والشرف ليأبيان بكل إباء وشمم أن ينظرا اليه . . .

ولكن هل أفادت تعاليمي فيكم شيئا يا قوم : هل ائتمرت ؟ !

ليست هذه هى الصيحة الأولى ، ولن تكون الأخيرة .

بل هذه صيحة دائمة ستقض مضاجعكم ، وتعكر عليكم صفو أحلامكم .

خذوها منى حكمة خالدة ، هى تلك الحكمة التى دأب الانسان فى البحث عنها فى كل الكتب فما أفادته كتب الاولين ، ولن تفيده كتب المتقدمين أو القادمين .

انبذوا الاستعمار ، فهو طريق للرذيلة والفساد .

* * *

وثمة شيء آخر جدير بالذكر والتسجيل ، هو تلك الظاهرة التى أجبرت فطاحل كتاب أوربا وعلى رأسهم السير ماكس بيربوم ، على تحليل شخصية هذا الرجل تحليلا دقيقا . فانتهزوا فرصة بلوغه التسعين فى عمره المديد ، وتناقشوا فيما بينهم واتفقوا على أهدائه باقة من الورد . . والورد عادة لا يخلو من الأشواك .

فقام فريق منهم بإبداء رأيه فى صراحة ، فلم يعمد أحدهم إلى تضليل الناس به ، أو التملق إليه . بل أبدى كل رأيه فى جرأة . حتى أن الأستاذ ا . س . نيبل ، وهو من فطاحل رجال التربية القلائل الذين تعتد بهم الحكومة الانجليزية وتفخر بنظرياتهم قال له فى صراحة نادرة « انك يا برنارد شو لا تفقه شيئا فى النظريات التربوية » .

بل قال أكثر من ذلك ، وسيقف القارىء على كثير من هذه الآراء التى قدمها ، كما أسلفت ، أكبر الكتاب الانجليز إلى سيد كتاب القرن العشرين فى عيد ميلاده التسعين . . وآراء هذه النخبة الممتازة من المفكرين المعاصرين لا يرقى اليها أدنى شك فى أنها آراء جوهرية عصرية . أو بمعنى أصح خلاصة ذهنية متوقدة سطرها على صفحات القرطاس فلاسفة وحكماء وأدباء بلغوا من مراتب المجد أسماها ، وتبوأوا فى

المجتمع الإنسانى مراكز ممتازة . فلم يعمد واحد منهم إلى المداهنة أو التضليل لأنهم جميعاً مثل عليا يحتذى بهم طلاب المعرفة فى كل قطر . .

أقول هذه الخريدة من عمل نخبة ممتازة من كتاب الدرجة الأولى لتدل أكبر الدلالة على اهتمام الشعور العالمى ببرناردشو . . أو اعتدادهم بآرائه ونظراته فى الحياة . فقد عالج لهم أكثر من نظرية فلسفية ، سيقف القارىء على الكثير منها فى صفحات هذا الكتاب . بل لقد أجبر كثيرين من الفلاسفة المعاصرين أمثال « جود » الفيلسوف الانجليزى المعروف ، على دراسة نظرياته ، وتفنيدها تفنيداً يتفق مع الواقع ، ويتمشى مع نظريات سلفه من الفلاسفة الذين برزوا فى الوجود منذ نشأة الخليقة ، ودونت نظرياتهم خوفا من ضياعها فى غمار الحياة . . وغير هذا وذاك كثيرون من الذين أبدوا اهتمامهم بهذا العقل المتوقد النضيج . .

* * *

لبرنارد شو آراء طيبة فى ميدان العلوم . وليس لكونه أديباً بفطرته ، وكاتباً مسرحيا من الطراز الأول ، لا يفقه شيئا فى الاقتصاد ، أو علم الأحياء أو السياسة مثلا ، كما يظن السواد الأعظم من الناس ، بل على العكس ، فهو يجيد الناحية العلمية ويحدثك فيها حديث المطلع الخبير ، الملم بأسرار العلوم ، المتتبع تطورها وتقدمها .

ولعل آراءه فى الاقتصاد قد أثارت اهتمام كثيرين من كبار العلماء والاخصائيين فشهدوا له بالبراعة والحذق وعلو الهمة وطول الباع . .

وفى « قاموس السياسة » سيقف القارى أيضاً على آرائه فى الرجل الاقتصادى ، وسيلمس بنفسه مدى استعداد هذا الأديب الكبير لتفهم نظريات الحياة ، ومعالجته لأدق المسائل التى تحتاج عادة إلى عقل علمى بحت وخبرة واسعة بأساليب هذا النوع من العلوم . .

بقى شىء آخر يعالجه هذا الكتاب ، وهو مجموعة مقالات لبرنارد شو الكاتب الساخر ، عن السجون ، عن الجريمة . أصلها ، والدافع لها ، وطرق مقاومتها ، بالليّن أو بالقوة . . وهل الجريمة مرض ؟ إلى غير تلك المسائل الفريدة التى تعد بحق جواهر

نادرة المثال فى البحث وراء موضوع من أهم الموضوعات التى تشغل بال الرأى العام ، والحكومات فى كل بقاع الأرض . . .

إن كثيرين من علماء النفس قاموا بأبحاث ملأت مجلدات ضخمة عن الدافع الأصلى للجريمة . وقد وفق البعض فى الوصول إلى معرفة السبب الجوهرى ، وهو لا يخرج عن كونه سبباً كان له أكثر السيطرة على عقل المجرم ، فأوحى اليه أن يقوم بجريمته انتقاماً لمن اغتصب حقه ، أو أفرط فى السخرية به ، أو لشعوره بنقص ما أو حبا فى الجريمة ذاتها إلى غير ذلك .

أما برنارد شو فيعالج الموضوع من ناحية مخالفة لهؤلاء الذين أتعبوا أنفسهم وأتعبوا الناس والحكومات معهم . . .

إنه يعالجـــه بطريقته الخاصة . فيغريك بمتابعة قراءة بحثه الشيق بروح ملؤها الإعجاب والدهشة لغرابة أفكاره ، وما يتخللها من فكاهة نادرة تضحك من لم يعرف الضحك فى حياته . .

* * *

وقد رأيت أن اختتم هذا الكتاب بتعريب مسرحية قصيرة لبرنارد شو حتى يتسنى للقارىء أن يقف بنفسه على قوة أسلوبه ومتانته ، وشدة سخريته بالأوضاع والتقاليد . . .

وهذه المسرحية القصيرة التى أطلق عليها برنارد شو اسم « اللقية الحسناء » لم يسبق أن ترجمت إلى العربيـــة ، ورغم أن صاحبها كتبها عام ١٩٠٩ فإنها لا تزال محببة إلى جمهور القراء فى الغرب . مثلها مثل غيرها من مئات المسرحيات الصغيرة التى كان يكتبها برناردشو ليساعد بها الممثلين الناشئين من أصدقائه . فسرعان ما يكتسبون الشهرة ويبلغون مراتب المجد بمسرحية من تأليفه ، مثلوها على مسارح لندن أو أمريكا .

وسيقف القارىء أيضاً على آراء برناردشو فى الاستعمار ، وكيف أنه ناهضه ، ولا يزال يحاربه بكل ما أوتى من قوة وبيان وسلطان . .

ولعل فى مقدمته التى استهل بها « الكتاب الأبيض عن السودان » ما فيه الكفاية لإقناع القارىء العربى بأن هذا الرجل النزيه لم يعدم ناصية الحق ، بل هو دائب البحث عنه فى كل مكان وزمان .

لقد سخر بالإنجليز ، أو بالآلهة البيض ، الذين يتحكمون فى أقدار ذلك القطر الذى هو قطعة من وادى النيل . وأهاب فيهم « أن عودوا يا قوم إلى بلادكم ، فما عاد متسع فى أرض الغير لكم . . »

إلى آخر هذه الأقوال السديدة التى ذكرها فى المقدمة .

كل هذا مدون فى الكتاب .

ولا أخالنى إلا قد اوفيته حقه من البحث والاستقصاء .

وحاشاى أن أقول إننى بلغت به آية الدقة او الكمال ...

لأن الكمال من صفات الله عز وجل ، وليس من صفات الإنسان القاصر الضعيف ، فعذرنا إذن فى النقص مقبول .

ولا يفوتنى أن أشكر قراء مصر والشرق العربى ، وقراء العراق على وجه أخص ، لتهافتهم على مطالعة ودراسة كتابى الأول عن برنارد شو ، فقد أولونى ثقتهم ، ووصلتنى من بعضهم رسائل إعجاب وتقدير ، الشىء الذى اضطرنى برأ بوعدى لهم ، أن أستمر فى دراسة آثار ذلك العالم الجليل ، والفيلسوف الكبير ، لأقدم لهم آخر ما أنتجه يراعه الدفاق ، وقريحته المتوقدة .. فزودتنى الأيام بدراسة أوفر من الأولى ، فحصلت على معلومات جديدة لم يسبقنى اليها مؤلف مصرى بعد .

ولا أنسى أيضاً تشجيع الصحافة المصرية والشرقية والغربية ، وإفساحها لى أكثر من حيز لكتابة بعض مقالات عن هذا العالم الرفيع ، أذكر منها جريدتى الاهرام والكتلة الغراوين .

لا شك أن هذا التشجيع نفث فى روح الإقدام والمثابرة والبحث والاستمرار فى دراسة هذا اللون من شخصيات الأدباء والفلاسفة العالميين الذين لم تكتب عنهم مؤلفات عربية تجمع تاريخ حياتهم ، وتلخص أعمالهم وآثارهم .

فإلى قراء مصر والشرق العربي، وإلى أدباء العراق وقرائه، وإلى الصحافة المصرية والشرقية والغربية، أتقدم بخالص شكري وأوفر ثنائي لهذه الثقة البالغة بالكتاب الناشئين.

والله أسأل، أن يكون نصيب هذا الكتاب كنصيب الكتاب الأول من النجاح والتوفيق ؟

القاهرة ١٢ أبريل سنة ١٩٤٨ — مصطفى نكلا

obeikandl.com

برنارد شو فى الحادية والتسعين من عمره

— ١٩٤٧ —